الليالي العشر

عظات وحقائق في خيال

بقلم

يوسف حمدي يكن

obeikandl.com

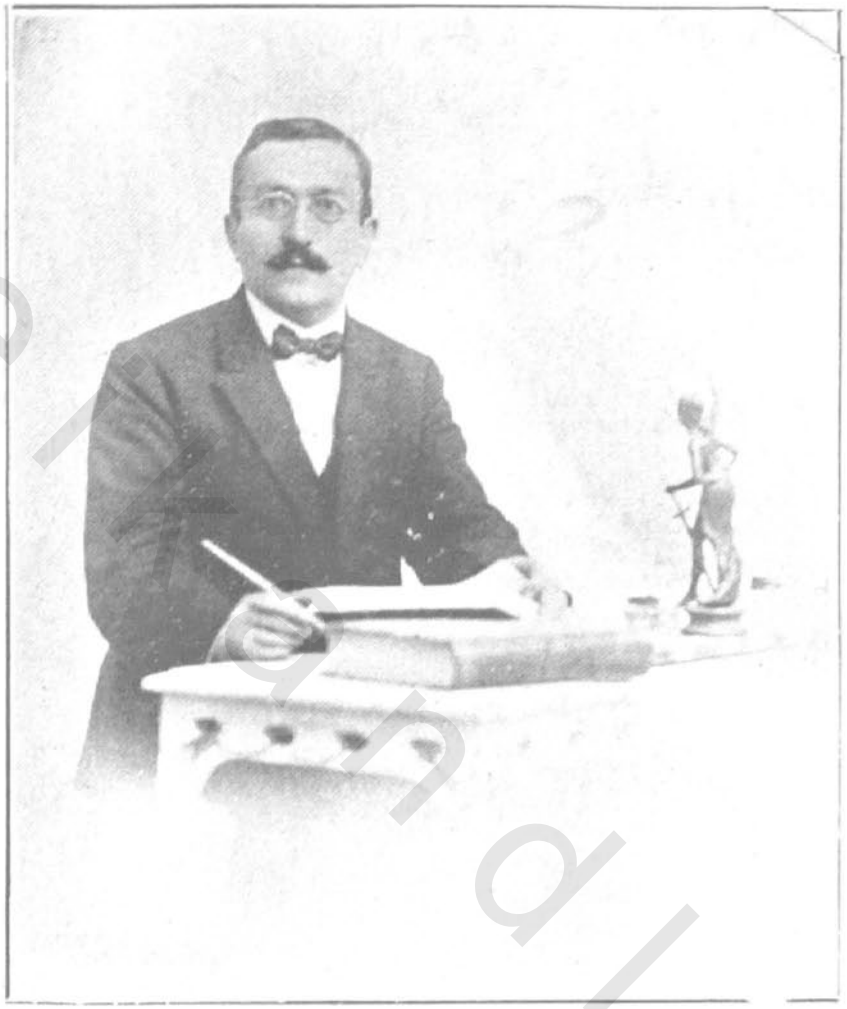

عودت يا قلمي بياناً صادقاً
ما عابه ان لست اول من صدق
يكفي من التوفيق انك كاتب
وحي الضمير الى اللسان على الورق

يوسف حمدي يكن

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

بخط المؤلف

في الآثار المصرية، ومن كتب العربية، عدد كبير، منه ما نظرته فانتقدته، ومنه ما طالعته فاستفدت، ولقد لقيت آثارنا الخلقية نادرة، والحاجة إليها شديدة، فوددت أن يكون لي أثر، ومن زمان قديم من طلائع بالوضع، فنشرت في العام الماضي على صحائف المقطم بعض كتابي [رفائع أرباب القلوب] الجديد، نال الكتاب تقدير الكثير من أفاضل العصر، وشجعني ما بدره من رجال الرأي الصائب، فطبعته، ولما رأيت انتصار الأدب والفضل بفضيلة عمله، زدت كتبه قدرة، فكتبت [عجائب البشر]، لقد نال من ثناء الأدباء، وتقديرهم فوق ما ظننت، هذا من فضل ربي، ولقد جعلت كتبي هذا أمثال الأمراء فوق الأمر من رجال القلم، وسأنشر بعده بإذن الله، ما رقمته في خزانتي من آثاري، فنفتسية، ومن الله التوفيق

يوسف حمدي يكن

تعليق المقطم

على « الليالي العشر »

تفضل حضرات العلماء الأجلاء اصحاب « المقطم » الاغر ، بالتعليق على هذا الكتاب ، بعد ختام نشره بالتتابع في جريدتهم النافعة . واني اثبت هذا التعليق اقراراً بفضلهم ، مكرراً لحضراتهم شكري العظيم

قال المقطم

انتهت الليالي العشر بهذه الرسالة ، فكانت من خير ما كتب في باب العظات والارشاد المفرغ في قالب الرواية والحكاية علاوة على ما امتازت به من بلاغة الانشاء ودقة التعبير وسلامة الذوق وحسن البيان وهي صفات لازمت ما يسيل به قلم كاتبها فيما ينشئه نثراً ونظاماً كما لازمت ثمار قريحة المأسوف عليه شقيقه ولي الدين بك يكن من قبله

وقد كتب الينا غير واحد من القراء متمنين على يوسف بك ان يواصل هذه الليالي او ما يماثلها لما فيها من النفع الجزيل لقرائها المعجبين بما حوت من حكم وعبر والمغرمين بالانشاء المتين واسلوب البيان الساحر فنحن ننشر امنيتهم هذه تاركين له الحكم في معاملتها وظننا انه سيلبي الطلب ويواصل برسائله خدمة الانسانية ونصرة الأدب

الليالى العشر

— ١ —

(عبر للمعتبر)

دخلت كعادتي الى مكتبي ، في الساعة التاسعة من الليل ، أنرت المكان وفتحت النوافذ ، السكون شامل ، ما اطيب هذا السكون ياحلوان ، هممت بأن اطالع ، كتبي حولي مبعثرة ، الست شرقياً ، مددت يدي بلا تخير ، ما هذا ، مقدمة ابن خلدون ، قرأت اسطراً وطويت الكتاب ، ادركني ملل لم اعرف باعثه ، ثم لحقت بي كتائب من شجوني ، طال معها عراكي فقمت امشي في الغرفة ، اريد ان اكون المتكلم فأين المخاطب ، اطللت من نافذة ، نظرت الى السماء ، النيرات تستسر وتلوح : كأنها الآمال ، كيف لا اتكلم ، ما انا بأول من سامر النجوم ، يا نواظر الفلك : غضي الجفون عما نحن فيه ، حسنات تعد ومساوىء لا تحصى ، من لنا بليل أقتم ، لا يعقبه الا نظيره ، فلا ينبلج صبح يخجل منا اهل الحياء ، وهم قلة ، ولا يضير صلاب الوجوه ، وهم كثرة ، ويح البريء من الآثم ، هذا قسمته ان يستر وجهه من مخاز عن يمينه وشماله ، لايد له فيها ، وهذا حظه ان لا يبالي ، حياة اولها عبث ، ووسطها ضلال ، وآخرها نكال ، فاذا بلغ نهاية الشوط لن تنفعه العظة ، قضي الأمر وختمت حياة الآثام

الساعة تدق ، لم يبق على منتصف الليل سوى ساعة واحدة ، رجعت الى مكان جلوسي ، وفي صدري بعض الراحة ، ثقل جفناي ، نمت

رأيت نفسي على رابية عالية ، بين ماء وزرع ، يكاد الفجر ينبثق ، من

ذا لا يفتنه هذا الجمال، اسمع صوتاً، هذا النشيد كأنه من شعري، الناشد يقول

ياليل كم فيك من شؤون مستترات عن العيون
قد كان علمي بها ظنوناً فآل ظني الى يقين

اين هذا القائل ، مشيت الى مصدر الصوت ، اذا بانسان ، كان راقداً فاستوى قائماً ، تأملته ، فكأنني نظرت في مرآة ، لا فرق بيني وبينه في شيء ، كذلك ثوبه هو عين ثوبي ، سبحان الخالق القادر ، قلت لشبيهي : السلام عليك ، قال وعليك السلام ، قلت لمن البيتان اللذان انشدتهما ، قال هما لي ولك ، قلت هذا عجيب ، قال اما عرفتني ، انا مصدر الهامك ، انا مورد معانيك في شعرك ونثرك ، انا خاطرك ، زعموا من قديم الزمان ان لكل شاعر شيطاناً ، اذا صدق الزعم فانا كذلك شيطانك ، قلت وما تفعل هنا يا حبيبي يا شيطاني ، أجئت بي ام جئت بك ، قال لا تكثر من السؤال ، اني زائرك في ليال عشر ، وسأريك في كل ليلة عجباً ، فسر معي اذا شئت

امسكت يمينه بشمالي وسرنا ، دخلنا مدينة لا اعرفها ، ومررنا بطرق كثيرة ، الى ان وقفنا امام دار كبيرة ، في زقاق ضيق حالك الظلمة ، قلت لمن الدار ، قال لا تسل عن اصحابها ، انا لا نعرفهم ولا يعرفوننا ، قلت فكيف ندخل بيتاً لا نعرف اهله في مثل هذا الآن ، قال هذا منزل يدخله من يريده ، هذا بيت من بيوت القمار ، هنا قوم يسعون الى الفقر من طريق الغنى ، هجم الناس وما زالوا ساهرين ، ليس للمقامر ذمة ولا عهد ، لا يأسف الا على دنانير يخسرها ، ولا يفرح الا لدراهم يربحها ، يضيع المال في حب المال ، ولا يشعر

صعدنا الى الطبقة الاولى ، ودخلنا من احد ابوابها ، فاذا مكان

فسيح ، تتوسطه مائدة طويلة ، عليها نقود من ورق وفضة ، وحولها اناس كثيرون بأيديهم ورق اللعب ، وقفت بجانب احدهم ، كان ضخم الرأس والجسم ، منتفخ الاوداج ، يسبح في عرقه ، له بطن بارز ، يسع بطوناً كثيرة ، يضع رجلا ويرفع اخرى ، قلت لشيطاني ماخطب الرجل ، قال انه في حال حصر شديد ، لكنه لا يريد ان يذهب لقضاء الحاجة ، الا بعد ان يذهب ما في يده فيستريح ،

مرت لحظة ، قام الرجل بعدها مهرولا ، غاب عنا قليلا ، وعاد باحثاً عن طربوشه وعصاه ، اخذهما ونزل ، اقتفى شيطاني اثره ، وانا وراءهما ، فما زلنا نجد في السير ، الى ان وقفنا امام دار عتيقة ، تكاد اركانها تتداعى ، دخل الرجل وبقينا ، سألت شيطاني عما نصنع ، قال اننا نسمع من هنا كل شيء ،

سمعت زوجة الرجل وقع قدميه ، فقامت اليه ، قالت هذا موعد كل ليلة ، واني لأرى على وجهك خيبة الآمال ، ماذا فعلت ، لم يكن جوابه سوى ضربة شديدة ، صرخت المسكينة من الم الضربة وقالت : فاقة ، وسهر ، وضرب ، من ذا يحتمل كل هذا أضعت مالك ومالي ، ومازلت تأخذ مما في البيت حتى لم يبق شيء ، واليوم اخذت ثوبي الثاني فبعته ، قلت لك اعطني من ثمنه شيئاً ، اشتري به خبزاً يأكله غداً عيالك اذا جاعوا ، فكان جوابك لي مثل هذه اللطمة ، وتركتني ايها الظالم ، يحيط بي ابناؤك وبناتك الصغار ، أبكي ويبكون ، لم نجد ما نشتري به شمعة ، فبتنا ايها القاسي في ظلمة الليل ، نرتعد خوفاً ورعباً

لم اطق سمع ما بقي ، سددت اذني وجريت ، وما زلت اجري الى أن صحوت ، في الساعة الأولى بعد نصف الليل.

انا وشيطاني

(صحيفة ٥) تأملته ، فكأني نظرت في مرآة . لا فرق بينه وبيني في شيء . كذلك ثوبه هو عين ثوبي . سبحان الخالق القادر !

obeikandl.com

— ٢ —

في عالم آخر

ها أنا حيث كنت بالأمس ، يا شيطاني العزيز : بلغ الشوق اليك مداه ، لو جاز للشاعر ان يبدّل اسم شيطانه ، لما دعوتك الا ملكا كريماً ، انك تهدي ولا تغوي ، وتنصح ولا تغوي ، جوّال ، بحاث ، حلو في نكاتك ، مرّ في جدك ، من ذا أسامره الى أن ألقاك ، اين تلك الزهر الساطعة ، مؤنسة الموحش ، سميعة النجوى ، ليست الليلة كالبارحة : تقنع الأفق بغمام كثيف ، فهل تبصر العين في دولة السواد الا ظلاماً ، ما أشبه ليلتي باحدى أخواتها ، قلت فيها من قصيدة

وليلة ضل فيها النجم ليس لها بدر اناجيه أو صبح ارجيه
سهرت حتى نسيت الصبح وانتشرت لي الشجون وهمّ كنت أطويه

وبعد ، فماذا تصنع ياحمدي لتتلاقى بشيطانك ، لا بدّ من غفوات في هذا المكان متعاقبات ، الى ان تنتهي ليلاتك العشر ، فهل لجفنيك من سلطان على الكرى ، وهو سلطان الجفون ، أم تنام نومة « جحا » بعد يقظته ، ليأخذ ما تعفف عن اخذه في رؤياه ، اللهم هبني سنة من النوم ، ارى فيها شبيهي ، حبيبي ، شيطاني

لطف الله بي ، ادركني نعاس لذيذ ، فنوم هنيء ، رأيت نفسي سائراً في طريق بالقاهرة ، مزدحم بالسالكين ، من ماش وراكب ، قبعتي على رأسي ، عصاي بيميني ، وشمالي تبرم شاربي ، كعادتي حين افكر في شيء ، الأصوات من كل جانب ، بينها صوت ينادي ، من المنادي ، تلفت يمنة ويسرة ، لم أر واحداً ممن أعرفهم ، وقفت ، لم يطل

وقوفي ، أقبل عليّ من تمنيت لقاءه ، رأيته يوسع الخطى ، ويشق الصفوف ، مرتدياً مثل ملابسي ، وعلى رأسه أخت قبعتي ، فلما دنا ، سلمنا ، ثم مشينا كتوأمين ، قلت له أأنت المنادي ، قال نعم ، قلت اراك مقتدياً بي فيما على رأسك ، قال أخطأت ، بل أنا واضعها قبل أن تضعها ، قلت اصبت ، وسألته عن وجهتنا في هذه الليلة ، قال لا تعجل ، لي معك حديث ، في نهايته بداية الاتجاه الى القصد ، فواصل سيرك معي ، اني أعرف مكاناً يليق بخلوتنا

سرت مؤتنساً بشيطاني الفاضل ، كذلك قبعتي كانت مؤتنسة بعفريتها ، قال مصاحبي : إننا الآن في الساعة العاشرة من الليل ، وانا على وشك الوصول الى مقر خلوتنا ، قلت وما هو ، قال خميلة جميلة ، لا يقصدها أحد في مثل هذه الآونة فهي لنا بلا شريك ، ووافينا المكان ، فاذا بنا في جنة ، لم تبصر العين بأحسن منها ، تطلع البدر اليها ، يالها نظرة جعلت الليل اضوأ من الصباح ، فابتسمت ورودها ، من بيض ، وحمر ، وصفر ، ولمع غديرها الصافي ، فنظرنا فيه الى سماء ثانية تحتنا ، وكأن الأطيار نبهها هذا الجمال ، فحيت روضها بأساجيع من لغة القلوب

جلسنا على مقعد من الخشب ، قال شيطاني : أأعجبك هذا الموضع ، قلت رضي الله عنك ، قال فاسمع ، قلت تكلم ، قال : ان من عباد الله من لا تروقهم حياتنا ، لذا اختاروا ان يعيشوا في عالم آخر ، هم معنا بجسومهم ، غيب عنا بعقولهم ، يرون كل شيء على غير حقيقته ، فيسرهم ذلك التغير في صور الاشياء ، اؤلئك هم طائفة الحشاشين ، الحشاش يرى الحصان ذا قرنين ، ثم يجده جملاً ، ذا جناحين ، فاذا انقلب

الجمل الى ارنب كبير ، الى زورق ، الى كلب يعوي ، ضحك الحشاش وقال : (ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن) ، والحشاش مريض الصدر ، شاحب اللون ، ضعيف البصر ، مفكك الأعصاب ، ذليل ، جبان ، لا ادري من أوجد هذا النبات السام ، قتال النفوس ، سلاب العقول ، ولا اعلم ماذا يجد القوم من لذة ، في غيبوبة آخرها حسرات للقوم نوادر عجيبة ، يتفكه بها أناس ، ويتعظ آخرون ، أ أقص عليك طرفاً منها ، قبل ان نغادر المكان ، قلت تفضل اذا شئت ، قال : زعموا ان اثنين خرجا من (الحشيشة) في آخر الليل ، عائدين الى منزليهما ، كان البدر في تمامه ، قال احدهما : أشرقت الشمس ، متى ننام ومتى نصحو ، قال زميله ، وكان أقرب منه الى الوعي : هذا قمر لكنه كبير ، اختلف الاثنان ، لم يستطع احدهما إقناع صاحبه ، وبينما هما في جدالهما ، اذا برجل من الطائفة ، لا يعرفانه ، يمشي مشية الخائف ، يلمس الجدار في كل خطوة ، فاتفقا على جعله حكماً بينهما ، سأله احدهما ، يا أخانا ، هذا قمر أم شمس ، فأجاب الحكم : عفواً ياسيدي ، انا لست من اهل هذا البلد ، وحكى رجل عن نفسه ، قال مررت بمنزل صديق كان جالساً امام بابه ، فدعاني الى شرب القهوة ، أجبت دعوته ، وجلست احادثه ، فأخرج من جيبه ورقة ، فيها قطعة من الحلوى ، ناولني منها جزأ صغيراً ، قلت ما هذا البخل ، قال ماظنك بهذه الحلوى ، قلت اليست مما يباع في الاسواق ، قال نعم ، لكنها نوع من (المنزول) قلت ومن اي الاصناف يتركب هذا المنزول ، قال من اصناف كثيرة ، رأسها الحشيش ، أكلت القطعة بنية الاختبار ، ثم شربت القهوة ، وغربت الشمس ، فسلمت وعدت الى منزلي ، قالت زوجتي : اتشتري

لنا سمكا مشوياً من السوق ، قلت اعطيني وعاء اضعه فيه ، فلما جاءت به ، تعلق بي ولدي ، وهو طفل في الثانية من سنه ، اشفقت عليه ، فرفعته الى كتفي ، واخذت الوعاء وانصرفت ، بي ظمأ شديد ، لا أعلم انه من المنزول ، نسيت ان اشرب في البيت ، فاين اجد الماء ، وبعد مسير قليل ، رأيت (زيرا) بجانب جدار ، قلت هذا من فضل ربي ، ودنوت منه لأرفع الغطاء ، اذا بالزير يتكلم قائلاً ماذا تريد ، ارتعدت فرائصي ، قلت له ومن أنت ، قال انا الخفير ، قلت اذن لست بالزير ، فضحك الرجل وخجلت ، غرني لون ردائه وانكماشه فيه ، ولما بلغت حانوت السماك ، انزلت ولدي الى الارض ، ووقفت الى ان وزن لي رطلين ، أثقل المنزول جفنيّ ، ودارت الارض تحت قدميّ ، فلما ملت لأحمل ولدي ، حملت كلباً كان بجانبه يداعبه ، مشيت ، مد الكلب عنقه ، اذ شم رائحة السمك ، قلت اصبر ، ستأكل منه مع أمك ، فأعاد الكرة ، اعطيته قطعة ، لم يقنع بها ، ناولته الثانية ، زاد طمعاً ، القمته الثالثة ، فالرابعة ، فالخامسة ، الى ان وافيت البيت ، قالت زوجتي : اهذا هو السمك ، قلت ما ذنبي ، أكله ولدك في الطريق ، فضربت صدرها وقالت ولدي ، اين ولدي يارجل ، انت جننت ، تعود بسمكتين ، وعلى صدرك كلب ، تقول انه ولدي ، اين تركت الولد ، ماذا اصاب عقلك ، نظرت الى ما احمل ، فاذا به كلب اصفر لطيف ، رميته على الارض ، ايقنت اني (مسطول) ، فأخبرت زوجتي بالقصة ملتمساً عفوها ، ووصفت لها محل السماك

قال شيطاني : هذا يسير من الفكاهة والعظة ، والآن يجب ان نقوم من هنا الى وجهتنا ، سرنا في طرق مختلفة ، الى ان وقفت أمام

باب عليه زحام شديد ، قلت ما الخبر ، قال تمهل ، رأيت رجالا خرجوا مربوطين من ايديهم بحبل واحـد ، يحيط بهم رجال الشرطة ، قلت من هؤلاء ، قال حشاشون ، فاجأهم رجال الضبط ، وهم يسوقونهم الى (القسم) كما ترى ، ليكونوا عبرة للناس ، قلت ارى بينهم فتى عليـه دلائل النعمة ، يكاد يذوب حياء مما هو فيه ، قال عسى ان يعتبر بما أصابه أمثاله ، بين ذوي النعمة فتيان زادوا ويلاتنا بمـا يتعاطون من كل جوهر سام ، غير مفكرين في العواقب ، والآن استودعك الله ، سلمت عليه شاكراً ، وصحوت في منتصف الليل .

— ٣ —

غل اليد الى العنق

هذه الساعة العاشرة من الليل ، في مثل هذا الآن ، تعودت العين أن يزورها كراها ، اغفيت ، رأيت في سنتي ، عروس الافق ، أم الوجود ، أخت الأزل ، بادية الجبين من مشرقها ، تفيض على الكون نعمة نورها ، أهلا بباعثة الحياة ، سيدة النيرات ، لولاك لما ميز البصر شيئاً من شيء ، ولا نفعت هداية العقل ، ولا اجدت محاولة البقاء ، أسفرى ، أنيري ، أرى منازل صغيرة ، كأنها خلايا النحل ، هبت ذووها من مضاجعهم ، اؤلئك قوم خلقوا ليعملوا ، فهم الصانع ، والبائع ، والزارع ، يسعون في مناكب الارض ، ليجدوا ما قسم لهم من رزق حلال ، فهم وامثالهم اسس العمران ، من ذا يشابههم ، ايستطيع الحاسبون ان يحصوا من ينامون منا الى الظهيرة ، على فرش وثيرة ، في

قصور عالية ، اؤلئك من كتب على اكثرهم ان يكونوا خزنة : يكنزون المال ، لجهلهم سبل انفاقه ، لم يكدوا ليجدوه ، وجدوا فيه وتركوا، فهل يستطيعون الا ان يكونوا له حافظين

ثم التفت الى الغرب ، فالفيت ارضاً واسعة ، نبت زرعها ، في وسطها قصر عظيم، على جانبيه اشجار كثيرة ، تعانقت اغصانها، تاقت نفسي الى جولة في تلك الناحية ، مشيت اليها ، بلغتها ، فاذا صوت من بين الاشجار ، ينشد

«قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ويصنع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من صنعه
فاقبل من الدهر ما اتاك به من قر عيناً بعيشه نفعه»

هذا مما احفظه من قول المتقدمين ، فيه خير عزاء للفقير ، قيل انه للأضبط بن قريع ، وللأبيات بقية ، فمن الناشد، ما اشبه الصوت بصوت شيطاني العزيز ، خطوت الى جهة الصوت خطوات معدودات، فبدالي من ذكرته بصوته ، هو بعينه ، صديقي الأوفى ، شيطان بك يكن ، أنعم الناس علي بلقب البك ، وما هم بمصدر للانعام ، ولا انابه جدير ، فكيف لا القب به شيطاني ، وهو بمثله أولى

أقبل صاحب العزة مسلماً ، فسلمت ، قلت أأنت الناشد ، قال أفي ذلك شك لديك ، قلت ولم امسكت عما بقي ، قال أتجهل ان لكل مجال مقالا ، وأشار بالقعود في ظل شجرة ، فقعدنا ، قلت لمن هذا القصر ، قال انه لرجل من ذوي النعمة ، يقيم فيه مع خادم واحد ، هذه الاشجار ، وهذا الزرع ، من بعض ما يملك ، ستراه بعد قليل ، ان له بين أولي اليسار لأمثالا يخطئهم العد ، غلوا ايديهم الى اعناقهم، وحبسوا

المال في سجون من الفولاذ ، محكمة الاقفال ، لا يدخلها الهواء . ولا يخرج منها الهباء، ضنوا بما وهبهم الله . حتى على انفسهم ، فلا نصيب في مالهم للسائل والمحروم ، هؤلاء أشد على الناس ضرراً ممن يبذرون تبذيرا ، ذلك الفريق لا يؤذي الا نفسه ، وقد يخرج المال من يد بعضه ، الى يد من يحسن تدبيره ، وهؤلاء ، حراس على الدينار والدرهم ، لا تفتح صناديقهم الا ليوضع فيها ، مثلهم كرجل من الرعاة، علا صوته بالندب والبكاء ، فمر به عابر سبيل ، قال ما يبكيك يا رجل، فأشار الراعي الى كلب بجانبه ، وقال هذا حارسي الأمين ، وصديقي الذي لا يخون ، يلفظ نفسه الاخير ، لما بلغ به من الجوع ، قال الرجل : لكنني ارى في حقيبتك شيئاً من الخبز ، فلماذا لا تجود عليه بقطعة منه، قال الراعي: يا هذا، ان الصداقة بيننا وقفت عند هذه الحقيبة،

بلغت الشمس اعلى الافق ، وفتح باب القصر ، فخرج اثنان ، يتقدم احدهما الآخر ، الأول رجل كالابريق ، له انف كالخرطوم ، وبين كتفيه كمثل سنام البعير ، قال شيطاني هذا صاحب القصر، والثاني له سيمياء تشق على البصر ، اذا مشت على يده بقة لم تظهر ، لتشابه اللونين ، فهو بني اللون ، ذو رأس صغير ، واذنين كمروحتين، وعينين كخرزتين ، قلت ومن هذا ، قال انه وكيله ، كاتبه ، حاسبه ، رسوله ، طاهيه ، حاجبه ، فاذا مرض مولاه ، وصف له ما يعرف من دواء ، فكان طبيبه ، واذا تعب في سيره ، حمله على ظهره ، فكان دابته ، وانه بهذه الصفات لأرجح عقلا من سيده ، ولولا ما يكسبه فوق مرتبه ، في غفلة من مخدومه ، لاستقال من هذه الوظائف جميعها ، فاسمع حديث الرجلين ، انهما قربا ، ولازم معي هذه الشجرة ، خشيه ان يرانا احدهما

قال التابع لسيده : أأجيء بالكرسي لمولاي ، قال السيد : ألم أجلس عليه بالأمس ، هذا النوع سريع التلف ، وأنت تعلم ان الكرسي جديد ، لم يمض عليه الا سبعة اعوام ، وما عيب الجلوس على الارض فوق هذه الاعشاب ؟ من الارض خرجنا ، واليها مرجعنا ، وقعد الاثنان ، قال التابع : قرأت في احدى الجرائد رسالة مسهبة ، حمل كاتبها على سراتنا حملات منكرة ، اذ قال ان في بلادنا لتابع للمال ، لا يجريها سوى المال ، وان من سراتنا من ينفقون الدينار في اللهو واللعب ، ومنهم من يحبسونه بلا فائدة ، ولو شاء الفريقان ، لاقتديا بالعدد القليل ممن يزاحمون الغرباء في مناهل الكسب ، وفي ذلك نماء المال ، وصلاح المآل ، ومتسع للعاطلين وهم آلاف ، سدت في وجوههم ابواب الارتزاق ، وذكر الكاتب : ان في بلادنا اراضي اذا عمرت جاءت بخير وفير ، واننا في حاجة شديدة الى مختلف المعامل ، ودور الصناعات ، فما قول سيدي العظيم فيما كتبه الكاتب ، قال السيد : ألم اقل لك لا تقرأ من الجرائد سوى قسم الحوادث ، واسعار القطن ، قال التابع : عفواً ياسيدي ، هذه هفوة في العمر ، وعلى ذكر الحوادث قول ان احدى الصحف ذكرت : ان شركة أجنبية ستمد خطاً حديدياً بين كذا وكذا من بلادنا ، وقالت في نهاية الخبر : أين انتم يا أغنياء البلاد ، قال السيد : ماذا اصابك يا هذا ، أراك لا تنطق في يومك الا بما يؤذي السمع ، قل الخير والا فاسكت

فاجأني سعال شديد ، انتبه الرجلان ، مشيا نحونا ، قال السيد : ما شأنكما في هذا المكان ، اجئتما الى هنا لتسرقا ، قلت هذّب قولك يارجل ، ما نحن بلصوص ، انا شاعر كاتب ، وهذا اخي ورفيقي منذ

نشأتي ، قال أأنت كاتب تلك الترهات ، ومالىء بها رأس هـذا التابع الاحمق ، قلت الا يوجد في الدنيا كاتب سواي ، قال بل انت الكاتب ، وجئت الآن تسترق السمع ، لتعلم ماذا اقول ، ورفع يده يريد ضربي ، فقبضت على انفه بيسراي ، وما زلت اضربه الى ان صحوت ، في الساعة الأولى بعد نصف الليل

— ٤ —

في بنت الحان

اطبقت جفنيّ ، رأيتني لا ازال اضرب صاحب القصر ، توسل اليّ شيطاني ان اكف عنه ، فكففت ، وما ايقن المضروب بالنجاة الا وقام يعدو ، قلت لشيطاني واين التابع ، قال امسى متبوعاً ، ظنني ضاربه ، فسبق مولاه بالفرار ، ولسان حاله ينشد

« وفي الهيجاء ما جربت نفسي ولـكن في الهزيمة كالغزال »

بورك فيك يا حمدي ، من اين لك هـذا الساعد المجدول ، قلت أمثل من رأيت يكون الساعد المجدول ، هذا المسكين لو صارعه خياله لصرعه ، وانك لتعلم ما في خلقي من كره الشر ، وتجنب العدوان ، لـكنه رام البداية بالاذى ، فرددت أذاه بمثله

« وفي الشر نجاة حين لا ينجيك احسان »

قال شيطاني : ولى النهار ، وأقبل الليل ، فيجب ان نغادر مكاننا ، قلت الى اين ، قال سر معي واستمع الى ما اقول ، فلما بدأنا المسير قال : اريد الليلة أن أمر معك بعشاق بنت الحان ، اولئك قوم شأنهم عجيب ، تفاوتت درجاتهم في العقل والعلم والمال ، اذا غربت الشمس قاموا الى

غبوقهم مسرعين ، يافرحة الخمار ، جاء البك ، والعمدة ، والافندي ، والمسيو ، جيوبهم ملأى ، يريدون ان يشتروا ما يحل من رؤوسهم محل ادراكهم ، ومن جسومهم مكان صحتهم ، وضعت الزجاجات مفعمة بأنواع السموم ، وصفت الاقداح ، يليها اطباق حوت مختلف الالوان ، لا يعلم احد كيف صنعت ، فاذا مضت ساعات من الليل ، آب الواحد منهم الى داره ، يكاد يمشي على اربع ، ومن لم يبلغ به سكره هذا الحد ، رأيته مائلا في مشيته ، خائر القوة ، ثقيل اللسان ، زائغ البصر ، كريه الرائحة ، يضحك لكل تافهة ، ويغضب مما لو سمعه في صحوه لأرضاه ، والسكران جريء الى حد التهور ، كذاب ، فضولي ، يذهب من عقله بين كل نشوة ما لا يشعر به ، قيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه : ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ، ولا حرج عليك فيها ، قال « اني رأيتها تذهب العقل جملة ، وما رأيت شيئاً يذهب جملة ويعود جملة »

قلت لشيطاني : وما ظنك بمن يبيعون أصناف الخمر ، أليس اكثرهم من الغاشين ، قال لعن الله مغشوشها وغير مغشوشها ، كلاهما فاتح أبواب الشر ، زائن الآثام ، جالب الآلام ، ألم تر الى الامم الراقية ، كيف بدأت تحارب هذه الآفة ، ما أشد حاجتنا الى الاقتداء بها ، (١) جاء الغرباء الى ارضنا ، فباعوا الخمر لشاربيها منا ومنهم ، لم يقتد احد منا بالبائعين ، وتشبه كثير بالشاربين ، أنفوا بيعها ، وما عافوا شربها ، أتريد بعد هذا دليلا على تمكن الداء ، أم تتطلب برهاناً على فقدان التمييز ، بين حرام فيه شيء من الكسب ، وحرام كله

(١) من المصادفات اللطيفة ، انه بعد نشر هذا الفصل بأيام ، رفع فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر الى جلالة الملك مذكرة بشان مصادرة الخمور

خسران ، هكذا هوي فريق منا الى الدرك الاسفل من سوء المصير ، لو نطقت المقابر ، لما أحصينا عدد من ذهبوا ضحية الخمر ، الا بعدا لها ، وسحقاً لشاربها وبائعها ، ان ما ينفقه شاربوها في اليوم الواحد، ليكفي كثيراً من اوجه البر ، واعمال الخير ، ايها السكارى متى تفيقون

بلغ بنا المسير حانة كبيرة ، لها بابان ، قلت لصاحبي ماذا تريد ، قال الدخول ، قلت وما جوابنا اذا سألنا الخمار عما نود شربه ، قال عليك السكوت وعلي الكلام ، دخلنا ، فاذا مكان متسع ، جميل الزخرف ، تسطع فيه انوار الكهرباء ، وفي الاركان والجوانب مقاعد فاخرة ، جلسنا في ناحية ، على مقربة من ثلاثة كانوا يضحكون ، جاء الساقي ، فسلم وقال بماذا تأمران ، قال شيطاني : الأوفق ان ننتظر قليلا ، إناعلى موعد مع رفاق لنا ، فانصرف الرجل ، قلت لشيطاني: لله درك ، ما أكثر حيلك ، قال لا تضع الوقت في الاعجاب بي ، أنظر الى جيرانتا الثلاثة ، واستمع لما يقولون

كان جيرانتا كهلين ، بينهما شاب ، تدل هيئته على انه من ابناء النعمة ، وتنم حركاته عن غرور بقوة الشباب ، قال لصاحبيه : أتعلمان ما فعلت في الليلة البارحة ، قالا اتتا تركناك على مقربة من منزلك ، قال نعم ، وبعد ذلك ، مشيت خطوات ، فاذا بي اسمع نباح كلب لجارنا في حديقته ، الكلب ضخم الجسم قوي العضل ، من سمع منه هذا الصوت : هَو ، هَو ، هَو ، ظنه أسداً يزأر ، فلما رآني من السور الحديدي ، كاد يجن ، وثب وثبة فكان امامي ، أتحسبان أني فزعت ، كلا ، هجم الكلب فاتحاً فاه ، أتعلمان ماذا صنعت ، قبضت يدي ، ادخلتها في فيه ، وما زلت ادفعها الى ان قبضت على مؤخره ، فجذبته

جذبة قوية ، جعلت باطنه ظاهره ، وظاهره باطنه ،فلما انقلب الكلب كما وصفت ، انقلب كذلك نباحه من هو هو هو ، الى وه وه وه ، ضحك الصاحبان ، وضحكنا ، فهمس شيطاني في اذني قائلا : ألم اقل لك ان السكران كذاب ، هذا نموذج من كذبه ، لكنه من نوع لا ضرر فيه ، وكم للسكران من أكاذيب يؤذي بها نفسه وسواه

قال الشاب لصاحبه ، ضحكتما لكنكما لم تصدقا روايتي ، قال قائل منهما : وما دليلك على صدق زعمك ، قال الشاب ، دعنا من الدليل ، سترى الآن ما يبهر الناظر ، هذه المرآة سأكسرها بضربة واحدة ، وقام ليضربها ، منعه خادم الحان ، فكانت الضربة من نصيبه ، صرخ الرجل ، واجتمع الناس ، وجاء الشرطي ، فقاد الضارب والمضروب الى مقر العدل والجزاء

قال شيطاني : زينت الخمر للمسكين ان يتبع الاكذوبة بأخرى ، ليست من نوعها ، فأصابه قبل تمثيلها ما أصابه ، انه سيقضي ليلته في مركز الشرطة ، وسيدعو صاحبيه الى تلفيق شهادة ، يظن انها تنجيه ، مما وقع فيه ، وكم للقوم من امثال هذه الواقعة ما فيه موعظة وذكرى للذاكرين ، والآن ، قم معي ، اصاحبك الى منزلك ، قمت معه ، سرنا ، الى ان وقف امام داري ، فسلمت ، وصحوت في منتصف الليل

— ٥ —

اعداء العفاف

كانت امامي احدى الصحف ، قرأت فيها اسطراً من مقالة ، عنوانها (الزواج بالاجنبيات) ، ولم اجد غير ما قيل مراراً ، طويت الصحيفة ، مددت يدي الى (الكامل للمبرد) فقرأت صحائف ، الحمد لله ، طهرت فكري من لغة الدواوين ، وكتابة بعض الجرائد ، ثم بدأت اقرأ شعر سيد الشعراء ، حبيب بن أوس (ابي تمام الطائي) ، الى ان رويت من هذا المورد العذب ، وجاشت النفس الى نظم الشعر ، فلم استطع ، انه عصاني ، والشعر يأتي ولا يُطلب ، فليس لي الا ان اتبع نصح الشاعر الحبيب ، لقد قال : « اذا عصاك الشعر فاتركه ، ثم عد اليه » ، امرك ياسيدي على الرأس والعين ، عدلت عن التفكير ، وذكرت موعد لقائي بشيطاني ، فتهيأت للنوم

رأيتني سائرا في طريق المرصد الفلكي « بحلوان » ، هذا موضع نزهتي في كل بكرة ، بلغت اعلى الهضبة ، فوقفت على مقربة من حوض الماء ، لم اصادف مخلوقاً ، ولا حارس الحوض ، نظرت الى المدينة نظرة ، واخرى الى النيل في مجراه ، وكأنه يبتسم للنهار ، ليفيض على مصر من خيره ما يفيض ، ولطافة النسيم ، كأنفاس أم على مولودها ، فطرق مسمعي من الجانب الآخر للحوض ، صوت ينشد

زمانك شأنه عجبُ وغاية جده لعبُ
فلا عقل ولا ادب كأن ذويهما ذهبوا

***

زمان الخير قد ولى ... وولى الخير في أثره
فهل أبقى له ظـلا ... سوى المطوي من خبره
أيذكر ما مضى الا ... سمـير الهم في سهره
يعيش العمر يرتقب ... على الأيام ينتحب

***

لأهـل الغي اهواء ... فهم صم عن الرشد
لقد عبثوا كما شاؤا ... وهل يخشون من احد
همو للطهر اعـداء ... اساؤا سمعة البلد
واهل النصح كم كتبوا ... بلا جدوى وكم خطبوا

قلت : الشعر عصري ، كأنه شعري ، والصوت صوت شيطاني ، فاين هو ، ما أظنه الا جالساً في اول المنحدر ، مشيت اليه ، رأيته ، وهل يخفي القمر ، فعانقته ، وقبلته ، وسألته لمن الشعر ، قال انه لك ، هذا ما حاولت نظمه في غيبة شيطانك ، فما أفلحت ، وأنك الآن سامعه ، وغداً قائله ، واني لأرى ان نذهب من هنا بعد قليل ، قلت وما وجهتنا ، قال القاهرة ، مالك لا تقصد هذه العاصمة الا لاداء عملك في الحكومة ، قلت الا تعلم كثرة شواغلي ، انك رسولي اليها ، ومحدثي باخبارها ، قال ولكن قيل

«يا ابن الكرام الا تدنو فتبصر ما ... قد حدثوك فما راء كمن سمعا »

قم معي الى (المحطة) ، هذه الساعة افضل من سواها ، وسترى في مصر اعجب العجب

بلغنا المحطة ، ركبنا القطار ، قال صاحبي : الا تذكر ما سطرته في (دقاتك على اوتار القلوب) بعنوان « نموذج في صلابة الوجه »، قلت

اذكر ، قال اود ان اريك نموذجاً ثانياً ، لتعيد الكرة ، لعل في الاعادة بعض الفائدة ، فقد كثر اعداء العفاف من صلاب الوجوه ، وهم كما تعلم ، ممن قل حياؤهم ، وزادت جرأتهم ، ومحيت مروءتهم ، لا عمل لهم سوى مغازلة النساء ، سيان عندهم المصونة وغيرها ، فهم شر المحن ، على بني آدم وبنات حواء ، لا ادري ، أأريك من جعلوا مهنتهم الذهاب والإياب ، في كل سبيل ، أم من حكموا على انفسهم بالوقوف امام المخازن التجارية ، أم من يتعلقون بكل قطار من الترام

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

ماذا يعمل نساؤنا ، أتخرج كل واحدة وبيدها بوليس تتوكأ عليه ، ام تسجن في بيتها ، فلا تزور ولا تزار ، ولا تقضي حاجة من حاجاتها ، لقد صبرنا ، ونصحنا ، وشكونا ، فما اغنى الصبر ، ولا اجدى النصح ، ولا نفعت الشكاة ، ألا الى الله المشتكى

وصل القطار الى (باب اللوق) ، قال شيطاني : اتستطيع انتظاري دقيقتين ، قلت لماذا ، قال لآتي بدراجتين ، قلت اني لم اركب دراجة في حياتي ، فماذا نويت لي من الخير ، قال لا تخف ، ستركب دراجتي ، وهي عجيبة لا مثيل لها ، فهي تسير وتقف بأمرك ، ولا تميل ولو ملت انت فوقها ، واذا شئت طارت ، واذا اردت هبطت ، فلا نظير لها عند سائر الشياطين ، كنت راكبها بالأمس ، ادركت بها اثنين ، كان احدهما يثني عليك ، والآخر يعارضه بحماقة شديدة ، فأوقعته على وجهه ، جزاء غباوته ، قلت اذهب وجيء بما وعدت

غاب شيطاني وحضر ، كلمح بالبصر ، ومعه دراجتان ، ركب واحدة ، وركبت الثانية ، ما ألذ ركوب الدراجات ، ليتني تعلمته قبل

أعوام ، بلغنا « العتبة الخضراء » ، الزحام شديد ، قال شيطاني: أنظر الى هذين الشابين ، يجب ان تتبعهما اينما ذهبا ، وثب الشابان الى قطار وجهته القلعة ، فوقفا امام مكان السيدات ، يبرمان شاربيهما ، ويرقصان حاجبيهما ، والبذاءة تتدفق كالسيل من فمهما ، فكان نصيب احدهما ، ضربة « بشمسية » ، والآخر بصقة ملأت عينيه ، فنزلا الى الارض ، هذا يحك رأسه ، وذاك يمسح وجهه ، وتعلقا بقطار ثان ، يسير الى العتبة الخضراء ، تبعناهما ، فابصرنا بسيدة بين يديها كيس اسود ، قالت لهما : لقد حرمتما عليّ المرور من طريقي هذا ، فماذا تريدان ، قال احدهما : نريد اخذك معنا الى حيث نشاء ، فأدخلت السيدة يدها الى الكيس ، وكانت أعدت فيه مقداراً من الرمل ، فرمتهما بملء قبضتها ، صرخ الاثنان ، ووقعا يسبان ويلعنان ، قلت لصاحبي : ليس امامهما الا المستشفى ، لا اوصلهما الله اليه الا بعد تمام العمى ، لينجو الناس من اذاهما ، وسرت بدراجتي الى ان صحوت ، في منتصف الليل

— ٦ —

شيوع الجهل

رأيت فيما يرى النائم : اوزاعاً من الناس ، أحاطوا برجل ، ظننته يخطب ، وحسبتني في « مظاهرة » ، قلت ما شأني في هذه المواقف ، اني بعيد عن السياسة ، لكنني سمعت القوم يضحكون ، فتاقت نفسي الى معرفة السبب ، دنوت من الجميع قليلاً ، قلت لأحد الواقفين ما الخبر ، فأجابني ضاحكا : هنا رجل من الحواة ، يلعب العاباً لطيفة ،

فوقفت مع المتفرجين ، وبينا أنظر الى ما يبديه الرجل من مهارة الشعبذة ، اذا يد لمست كتفي ، التفت ، رأيت شيطاني ، أهلا بصديقي الغالي ، ، ورفيقي منذ شاعريتي ، اين كنت ، وكيف اهتديت اليّ ، قال اني من لا تجده كلما أردت ، وانك من ألقاه حين أشاء ، سر معي الى هذه الشجرة ، نستظل تحتها ونتحدث ، مشينا اليها وقعدنا

قال شيطاني : أرأيت الى من أحاطوا بالمشعبذ ، قلت أجل ، قال ان فينا من هؤلاء عددا كثيراً ، شاع بين أكثرهم الجهل ، فأعمى أبصارهم ، وأضل عقولهم ، تتسلط عليهم أناس ، فارقتهم ضمائرهم ، وحلا لهم الكسب من ايذاء العباد ، فزعموا أنهم بما تعلموه من السحر ، يستطيعون قضاء الرغائب ، وشفاء المرضى ، ليس في اولئك الغاشين من يقدر أن يأتي بمثل ما يأتي به هذا المشعبذ ، وهو لا يدّعي علماً بالسحر ، ولا صلة بالجن ، كما يدّعون ، فاذا رغب جاهل في زلفى من عظيم ، أو تمنى نجاح أمر من اموره ، ترك ما يؤدي الى مقصده ، من تفكير وتدبير ، والتجأ الى اؤلئك المضلين بباطلهم ، فأفرغ ما بيده في أيديهم ، وهيهات الوصول ، الى المأمول ، واذا ألم به من المرض ما أقعده عن العمل ، نسي الطبيب ، وأساء ظنه بعلمه ، وأنكر طول خبرته ، وذهب الى من يضاعف بجهله بلواه ، ويرسله الى الآخرة ، بورقة ، لا يعلم ما فيها ولا كاتبها

قلت لشيطاني : ذكرتني شجناً أليماً ، وجددت بقلبي جرحاً قديماً ، في سنة ١٩٠٨ فقدت ولدي حسن (١) ، مرض المسكين أياماً ، فجئت

---

(١) ظن البعض ان رواية ولدي حسن خيالية ، وهي حقيقة ، ورثائي فيه نشر في حينه في جرائد مصر ومجلاتها

له بأمهر الاطباء ، ولكن شاءت الأقدار ، ان يخرج مع مرضعه للنزهة،فتذهب به الى امرأة تدّعي الطب الروحاني ، فتكتب له أحرفاً في طبق ، ثم تمحوها بماء ، وتسقيه اياه ، جاء الطفل ملتهب الجسم ، كأنه خارج من السعير ، دعونا الأطباء ، حاروا في أمره ، وفي اليوم الثاني ، كان « حسن » في نعشه ، وأبوه يبكيه بهذي الدموع من شعره

وارحمتا يا ولدي ياقطعة من كبدي
هذا وداع بيننا على فراق الأبد
حسبتني ذا جلد وأين مني جلدي
وأدمعي فياضة يسبح فيها جسدي
لما بكيت (حسناً) رق لدمعي حُسدي
وهالهم ما أبصروا من لوعتي وكمدي
وا أسفا يا أملي لقد ذهبت من يدي

واستعبرت ، فاستعبر شيطاني ، ثم قال : هوّن عليك ، لكل أجل كتاب ، ولقد عوّضك الله خيراً ، فاحمده على نعمته ، قلت الحمد لله ، قال : وبعد هذا ، فاغتفر لي ذنباً لم اقصده ، قلت وهل انا من يذكر هفوة الصديق ، ان جاز لي أن أسميها هفوة ، قال فقم بنا الى منزل رجل من اؤلئك المدعين ، الغاشين،الآثمين ، سترى هنالك كل عجيب

جدّ بنا السير ، الى ان وقفنا امام دار ، قلت ، لصاحبي أجئنا ، قال نعم ، واني اود ان تدّعي مرضاً ، قلت اني لا أحب الادعاء ، فادع انت ما تشاء

رقينا السلم ، دخلنا مكاناً متسعاً ، شغلت مقاعده بالجالسين ، وقفنا ، جاءنا الخادم بكرسيين ، قال شيطاني للخادم : كيف يكون

الوصول الى حضرة السيد ، قال الرجل لا بد ان تنتظر دورك ، قال صاحبي : ولكنني مريض ، ومهنتي محرر جريدة ، فلا أجد من وقتي معيناً على الانتظار ، ونفح الخادم بشيء أبرقت له اساريره ، فدخل الى سيده وخرج قائلا : تفضلا ياسيديّ ، دخلنا ، رأينا رجلا اصفر اللون ، ضيق الجبهة ، صغير العينين ، اسود اللحية ، ابيض العثنون ، سلمنا فسلم ، قال ايكما المريض ، قال شيطاني : انا ، قال مم تشكو ، قال ان بأذني طنيناً دائماً ، لا اعرف له سبباً ، ولقد حار في امري الاطباء ، قال السيد : الاطباء لا يعرفون هذه الامراض ، وقام ، فمال بأذنه على اذن شيطاني ، ثم اعتدل ، ونظر اليه قائلا : لم اسمع شيأ ، تبسم شيطاني بسمة أدركت باعثها ، وقال : ياسيدي ، ليس في اذني فونوغراف فتسمعه ، والطنين داخل من الخارج ، ولم يك خارجاً من الداخل ، فغضب السيد وقال : هذا شيء لا يدريه امثالك ، ان هذا لمن عمل الجان ، هات ياهذا ديناراً ، ووافني في صباح الغد ، أعطك « حجاباً » تحمله ، فيزول الطنين ، قال صاحبي : اني لا أملك الآن ديناراً ، فخذ هذه الدراهم ، وفي الغد سأجيء بالدينار وآخذ الحجاب ، ورجائي ان يتفضل عليّ السيد باسمه الكريم ، قال انا السيد عمر

تم الاتفاق ، وخرجنا ، فلما بدأنا بالمسير قال شيطاني : لو كان ابن خلدون حياً ، وصادفني اليوم ، لخنقته ، قلت لماذا ، قال أينكر الرجل علم المنطق ، ولا ينكر مثل هذه الخرافات ، لقد كان لاهل السحر ، والرمل ، والبزرجة ، ازمان خلت ، راج فيها ما ادّعوه من باطل لا ظل للحق فيه ، واننا الآن لفي عصر تجلت فيه معجزات

العلم الصحيح ، فلماذا لا ينشط العقلاء الى تنبيه الغافلين ، والعلماء الى ارشاد الجاهلين

وبعد ، فما رأيك في السيد عمر ، قلت اظن ان له اسما غير هذا ، قال أصبت ، فأكثر هؤلاء يبدلون اسماءهم في كل بلد يرحلون اليه ، خشية الافتضاح ، وعلى ذكر السيد عمر ، سأسمعك ما يدخل السرور الى قلبك

زعموا أنه كان في غابر الأزمان ، امير اسمه عمر ، رأى في احد الكتب ، أن من كان اسمه عمر ، وكان طويل اللحية ، كان ناقص العقل ، وان اللحية الطويلة هي ما زادت عن قبضة اليد ، قاس لحيته بقبضته ، فوجدها تزيد قيراطين ، قال لا بد من ازالة هذه الزيادة ، أمسك لحيته بقبضته ، ودنا من شمعة أمامه ، ليحرق بها القسم الزائد ، اشتعل طرف لحيته ، لمس اللهيب قبضته ، رفعها مسرعاً ، فالتهمت النار لحيته واحرقت وجهه ، تألم الامير ، وندم على ما فعل ، وأيقن انه ناقص العقل ، اذ فاته أن يقصها بمقراض لا يناله منه هذا الأذى ، ثم قال في نفسه : لا بد أن اعلم أهذا حكم صحيح ، أم صادفني مصادفة ، ان معلم الاولاد اسمه عمر ، ولحيته طويلة ، كذلك بستاني القصر ، فيجب أن أدعوهما ، وأسألهما عن اعجب ما حدث لهما في حياتهما

ولما اصبح ، دعا معلم الأولاد ، جاء الشيخ عمر ، قال الأمير : حدثني بأغرب ما وقع لك في حياتك ، قال الشيخ عمر : أصابني يامولاي في العام الماضي زكام شديد ، فكنت كلما عطست ، قال كل ولد بدوره ، يرحمك الله يا سيدي ، وأضاعوا وقتاً من حصة الدرس

فيما لا يجدي ، فأمرتهم قائلا اذا عطست ، فليترك جمعكم الالواح ، وليقل يرحمك الله ياسيدنا ، أجبكم جميعاً برد واحد ، وبعد أيام ، اردنا تطهير الصهريج لنملأه ، فطهر ، ورأيت أن انزل اليه كعادتي ، لأطمئن على أنه طهر ، فلما جاء الأولاد بالحبل وأدلوه ، تعلقت به ، وطرفه الآخر في ايديهم ، فما كدت أنزل قليلا ، الا وفاجأني عُطاس شديد ، ترك الاولاد الحبل ، وهويت الى أسفل الصهريج وهم يقولون يرحمك الله ياسيدنا

ضحك الأمير ، وانصرف الشيخ ، وجاء « الاسطى » عمر ، فلما سأله الأمير كما سأل الشيخ ، قال الاسطى عمر ، أذكر يامولاي ، أني اشتريت منذ عامين كبشاً عجيب القرنين ، اتصل طرفاهما ، فكونا دائرة كبيرة ، ضرب المثل بهذا الكبش ، وأعجب به كل من رآه ، وفي ذات يوم ، نظرت اليه ملياً ، وفكرت ، أهذه الدائرة تسع رأسي إن ادخلته فيها ، أم لا تسعه ، كبرت الفكرة ، عزمت على التجربة ، وضعت رأسي فدخل ، لكنني حين حاولت اخراجه لم أفلح ، بدأ الكبش يمشي وأنا معه ، ثم جري ، فصرخت ، اجتمع خلق كثير ، وحاولوا اخراج رأسي ، فلم يقدروا ، فكان بعضهم يقول : نقطع قرن الكبش ، وبعضهم يأسف على قرن الكبش ، ويرى من الأحسن قطع رأسي ، الى ان اتاح الله لي من وفق لنجاتي ، فاقتنع الأمير بالحكم

ضحكت ، وضحك شيطاني قائلا : ومن يدري ، لعل سيدى هذا غير كاذب ، ما أظنه الا السيد عمر ، شكرت شيطاني السمير ، وعانقته مسلماً ، وصحوت بعد نصف الليل

(٢٨)

— ٧ —

المرأة الجديدة

جاءني البريد بكتابين ، أحدهما بخط تلميذة لي ، من أهلي ، تقول لي في كتابها ، بعد الديباجة :

« لم تفتني ليلة من لياليك ، ليتها كانت عشرين ، فكل ليلة منها خير من الف شهر ، لكن ابنتك وتلميذتك غضبي على شيطانك ، ولها نصيرات من جنسها ، فقد شفى صدورنا بما أملاه عليك عن أعداء العفاف ، فأثنينا عليه ، وظننا ه مفكراً في أمرنا مرة أخرى ، فاذا به لايريد أن يفكر فينا بعد تلك المرة ، بلغه ياسيدي تحيارتنا ، وقل له ما رأيك في المرأة الجديدة ، هذا موضوع لا ينبغي إهماله ، وانا لفي انتظار ليلتك السابعة ، والسلام عليك من ابنتك المخلصة »

طويت الكتاب ، وبدأت بانجاز اعمالي الرسمية ، ولما عدت الى المنزل ، ودقت الساعة تسعاً ، ذهبت الى مكتبي ، والكتاب في يدي ، فقرأته مرة ثانية ، وطال تفكيري في لتاء شيطاني ، الى ان استولى الكرى على جفني

رأيتني في منزل صديق من سكان حلوان ، بينما رقعة الشطرنج ، المركز دقيق ، لو ربحت فرسه ، لخسرت فرزي ، واذا لم ارتض هذه المبادلة ، كان الشر أعظم ، أما من مخرج منك أيها الأزق ، شيطاني ماهر في الشطرنج ، لكنه غائب ، آه لو حضر ، لرأى منازلي لعب الشياطين ، و بينا أفكر ، اقبل شيطاني مسلماً ، وتعامى عن الرقعة فهزها ، وقمت الاحجار ، واختلطت السود بالبيض ، فوقف الخبيث

يعتذر ، فطنت لمراده ، وأيقنت انه عرف موقفي بلمحة واحدة ، ولم يجد وسيلة من وسائل الخلاص ، ففعل ما فعل ، وصاحب الدار في دهش ، لأنه لم ير لي شبيهاً كشيطاني ، وبدت على وجهه دلائل السؤال ، قلت هذا الذي تقرأ اخباره في ليالي العشر ، واني لأرجو ان تأذن لنا بالانصراف ، فاني أود أن اخلو بهذا الصاحب الأمين

سلمنا على صاحب الدار وخرجنا ، قال شيطاني : لقد أدركتك في أحرج المواقف ، قلت شكرا لك ايها العزيز ، والآن ما وجهتنا ، قال بيتك ، قلت انصفت ، عندي ما أود أن اطلعك عليه ، قال الا تدري اني كنت بجانبك حين قرأت الكتاب ، انه لمن خير الكلام ، قل ودل ، ويلوح لي ان تلميذتك مثلك ، لا تجعل لما تكتب صورتين ، فقد لمحت في الكتاب كلمة محتها بالمداد ، وأثبتت غيرها ، قلت أصبت ، هذه عادتي في كل ما اكتب ، وانها لخير من اضاعة الوقت في النسخ ، ولقد أدى بي الاعتياد الى ان لا امحو كلمة ، في كتاب أخطه لصديق أو عظيم ، وقد كانت هذه اول نصائحي لها

وصلنا الى البيت ، ودخلنا المكتب ، فجلسنا ، قلت ما رأي الصديق فيما سئل عنه ، قال :

كانت المرأة المصرية ، الى عهد المغفور له اسماعيل باشا الخديوي ، مسجونة في دارها ، عمياء في طريقها ، من بيت زوجها ، الى منزل ابيها ، تخرج مغطاة بازار تدلي الى قدميها ، يقودها تابع ، يدعى المقدم ، غير كبها حماراً يأخذ هو بزمامه ، فلا ترى ولا تري ، وكان زوجها لا يسمع منها غير ما حدث في الدار ، من خبر وعاء وقع فانكسر ، وخادمة مرضت ، واخرى أبلت ، ثم ترقت نساء العظماء الى ركوب العربات ،

مسدلة الستائر ، عن يمينها وشمالها فارسان من الخصيان ، وامام العربة ، مظلوم يجري ، عاري القدمين الى الركبتين ، عليه قميص ابيض ، فوقه صدرية منقوشة « بالقصب » ، وعلى رأسه طربوش طويل الزر ، وفي يده هراوة ، يفسح بها الطريق ، وكانت المرأة المتعلمة ، من رضي ذودها ان تحفظ آيات من القرآن ، تخطىء في أكثرها ، ولا تفقه معنى لما تحفظ ، هذا مجمل خبرها الى ذلك العصر ، ولكن الأدب كان غريزة في نفوس الناس ، شيوخهم وشبابهم وصبيتهم ، فلا يسمع المرء ولا من افواه السوقة ما يتفكه به الآن كثيرون من فاحش القول

وبعد هذا جاء دور البراقع ، من سود وبيض ، فكانت في اول الأمر حجاباً ، لا يبدو منه سوى العينين ، وكان في نسائنا قليلات ممن تعلمن مبادىء القراءة ، اذ أدرك البعض من الرجال ، أن المرأة لا يجب اقصاؤها من الآدمية ذلك الاقصاء ، أما الأدب ، فكاد يكون خاصاً بالشيوخ ، وبالطبقتين العالية والوسطى من الشباب

وفي هذه السنين ، كثر عدد المتعلمات ، بفضل ما أوجد من دور التعليم ، ورأينا بينهن الكاتبات ، والمصنفات ، والمدرسات ، فنحن بهذا الرقي سعداء ، لكن ، ماذا يقال في اكثر البراقع ، ألم تر كيف اخذت ترق ، الى ان كاد لا يبقى من الحجاب سوى اسمه ، مَن مبلغهن عني : ان الحجاب ما ستر لا ما اظهر ، وان الشرع لم يحرم ان يبدو من الحرة وجهها ، ويداها ، وقدماها ، فمن ذا أجاز لمن اعنيهن من نسائنا ، ان يزدن على هذا الحجاب العجيب ، ابداء ما يأمر الشرع والأدب الصحيح بستره ، باكاشفات الاذرع الى الاكتاف ، والصدور الى النُدي ، هذا عيب وحرام

اما لا نريد حجاباً ، ان جاز ان نسمي هذا حجاباً ، انا نتمنى سفوراً موقراً ، لا يزيد اهل الوقاحة جرأة على جرأتهم ، فلتنشأ بيننا المرأة الجديدة ، حاسرة القناع في ثوب وقور ، تجعله رداءها خارج دارها ، ان امامها لخير النماذج ، هذه زوجة البطل التركي ، الغازي مصطفى كمال باشا ، لم يبد لنا منها في رسمها سوى وجهها ويديها ، وهذه السيدة الجليلة ، صاحبة العصمة « هدى شعراوي هانم » ، رئيسة النهضة النسوية ، وزعيمة الرشيدات من نصيرات المرأة الجديدة ، كلتاهما ممن يجب الاقتداء بهن

واني لأرجو للمرأة الجديدة مستقبلا باهراً ، اذا جعلت أساس نهضتها الدروس الخلقية ، ولم تتبرج الا بين اللائي من نوعها ، مراعية في ذلك التوسط والاقتصاد ، وبعد ، ففي هذا الايجاز ما يكفي ، والسلام عليك ياصديقي ، ان موعدنا قريب ، سلم شيطاني ومضى ، قد صحوت قبل نصف الليل بقليل

— ٨ —

أعراسنا

رأيتني في رسنتي : مطلا من نافذة مكتبي ، الشمس توشك ان تغرب ، من هذا المقبل ، ما أظنه الا شيطاني ، لقد دنا ، هو بعينه ، مرحباً ايها العزيز ، اني انتظر قدومك بذاهب الصبر ، قال ، أسرع الى غرفتك ، فارتد ثيابك وجيء ، اني منتظرك هنا امام الباب ، قلت وما وجهة السير في هذه الليلة ، قال لولا سؤالك الطويل ، لكنا الآن في طريقنا ، أسرع ، علنا ندرك القطار

أقفلت باب مكتبي ، جريت الى غرفتي ، رأتني ابنتي ، قالت ماذا حدث يا ابي ، قلت ساعديني على ارتداء ملابسي ، عمك بالباب ، قالت أشيطانك عم لي ، قلت وابنته المحروسة اختك في الرضاع ، ان شاء الله ان تكوني شاعرة ، فانها ستصحبك ، قالت سأكون باذن الله شاعرة بعد سنين قليلة ، وما انتهى الحديث الا وقد تهيأت للخروج ، فقبلت ابنتي شاكراً ، ولقيت صاحبي

سرنا الى المحطة مسرعين ، كأننا نعدو ، ركبنا القطار ، فلما جلسنا ، وتحرك القطار ، قال شيطاني : الآن اوضح لك ما ضاق الزمن عن ايضاحه ، انا ذاهبان الى عرس في القاهرة ، قلت : لأجل هذا اسرعنا وجرينا ، كأننا ذاهبان لاطفاء حريق ، لو عرفتُ السبب لما رافقتك ، الا تعلم اني لا احب الأعراس ، وأن مثلي لا يذهب الى عرس بغير دعوة من اصحابه ، قال : الحمد لمن الهم شيطانك ، فتوقع كل هذا الكلام ، ولم يضع وقته الثمين في الجدال ، يا صاحبي ، اني لا اجهل طباعك ، وما انا بالغافل عما يناسب قدرك ، ليس في الأمر شيء ، سوى درس اجتماعي ، لا بد من مذاكرته مع التطبيق كعادتنا ، والرواية ، يجب ان تشاهد من اولها ، لا تخف ، لن يرانا احد ، وسترى كل شيء قلت وكيف ذلك ، قال دع الأمور لأوقاتها ، وقل لي الآن ، اتذكر حال الأعراس في (فروق) دار الخلافة العظمى ، قلت نعم ، اني اذكر ما كانت عليه في سني الرخاء ، قبل خمس وعشرين سنة ، فاستمع لما اقول

دعيت الى عرس لصديق من كبار الضباط في الجيش البحري ، وهو من ادباء الترك وشعرائهم ، كريم النجار ، كثير المال ، اسمه محمد

توفيق بك (١) ، واظنك الآن ذكرته ، وذكرت كذلك اني بحثت عنك في يوم العرس فما وجدتك ، لذا كان خجلي شديداً ، حين طلب اليّ صديقي ان ارتجل بيتين للتغني بهما فلم استطع ، ولا تسل عن حنقي عليك في تلك اللحظة ، سامحك الله ، وبعد ، فأوصل الكلام واقول : بلغت دار الصديق توفيق بك ، فوجدته مع والد العروس ، واربعة آخرين من أهله وخلصائه ، دعاهم مثلي ، فكان المدعوون خمسة بي ، ثم أقبل مأذون الشرع الشريف ، وتم عقد الزواج ، على مهر لم يزد على ستين ديناراً ، قبضها والد العروس ، وهو من الوجهاء الاغنياء ، ونصح المأذون للصديق ان يقتدي بوالده المرحوم ، في صلاحه وتقواه ، ودعا له بالتوفيق ، ثم صافحه وانصرف ، وتبعه بعد قليل والد العروس ، اما نحن فبقينا ، أدخلنا الصديق الحديقة ، فأحطنا بخوان عليه مالذ وطاب ، من طعام وشراب ، وكان بين الحاضرين فتى ، حسن الصوت ، وآخر ، جيد التوقيع على العود ، طربا ، فأطربا ، وحادثني صاحب الدار ، في امور عدة ، منها أمر زواجه ، قلت له ألا ترى المهر قليلا ، انتا في مصر نمهر بأضعافه ، قال هذا خطأ ، ليس المقصود بالزواج ان يكون ثمناً للزوجة ، يبيعها به ذووها ، انتا لفي عصر سادت فيه الحكمة ، فان جاز للمرء ان يفاخر ، فانما يكون ذلك بما عمل من صالح ، عم نفعه قومه ، لا بمال يعطيه زوجه ، ولا بعرس يدعو اليه أهله وصحابه ، لا شأن للناس في شيء من هذا وامثاله ، اتعلم كيف تكوّن جهاز العروس ، قلت لا ، قال : فرش ابوها غرفة الاستقبال ، وأعدت امها غرفة النوم ، واخواتها محل الطعام ، واقتسم اترابها مايلزم

---

(١) توفيق بك من خيرة اصدقائي ؛ وليس حديث عرسه خيالياً

من النفقات ، لفرش غرفتين أخريين ، وانها ستشاركهن في مثل هذه الهدايا ، كلما تزوجت واحدة منهن ، وفي هذا العمل ما فيه من حكمة الاقتصاد ، قلت اجل : شتان بين هذا وما نعمل ، فينا اناس يبيعون في سبيل الجهاز والعرس ما يملكون ، وآخرون يقترضون من المال ، مالا طاقة لهم على دفع رباه ، وفينا من يقدمون الهدايا من الجواهر ، يشترونها بضمني ثمنها العاجل ، وغيرهم هداياهم « شيلان الكشمير » ، تقدم في الليل لوالدة العروس ، وتوزع في النهار على الخدم ، فيعيدها هؤلاء الى بائعيها بنصف ثمنها ، قال وبيت العرس ، مفتح الابواب لكل سيدة من الجارات والأهل ، يدخلن مهنئات ، فينظرن العروس في ثوب زفافها ، ويلجن كل غرفة ، ثم يخرجن ، ويعقبهن غيرهن ، أما ما ترى من قلة المدعوين ، فهذا امر الحكومة ، ليس في طاقتنا عصيانه ، ولا فخر لمن يستطيع ان يدعو الفاً الى وليمة عرسه ، وعند غروب الشمس لا يبقى في الدار من السيدات الا اهل الدار

هكذا قضينا النهار في طرب وحديث ، ومضت ساعة على الغروب ، فسلمنا على صاحب العرس ، وودعنا شاكرين ، ما قولك ياشيطاني العزيز ، قال لله درك ، لم يفتك منظر وحديث لهما ربع قرن ، فلم تنس شيئاً ، ولا عتابي على تقصيري ، وصلنا الى القاهرة ، قم معي نستأجر عربة ، فنذهب الى العرس ، « وبضدها تتميز الاشياء »

سارت بنا العربة ، في طرق مختلفة ، الى ان اوقفها صاحبي ، فوقفت ، فنزلنا على رأس طريق واسع ، مشينا فيه امتاراً ، فزوى صاحبي في ركن مظلم ، قلت له ما الخبر ، فأخرج من جيبه خيطاً ابيض ، قلت ما هذا ، قال أحط به رأسك ثم اربطه ، فانك ترى ولا

ترى،قلت اتريد خداعي ، قال سأريك البرهان ، فلما فعلت كما قال ، بدا لنا احد المارة ، قال شيطاني : قف امامه ، واسأله كم الساعة ، فوقفت وسألت ، قال الرجل: اين انت ، قلت امامك وضحكت ، فصرخ الرجل قائلا ، بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا الطريق فيه عفريت ، وجرى بسرعة البرق ، زدت ضحكا واطمأن قلبي

بلغنا دار العرس، ما ذا اقول ، انوار زاهرة ، واعلام مرفوعة وبسط موضوعة ، ومقاعد مصفوفة ، واناس يعدون بالمئات ، المزمار البلدي في ناحية ، والموسيقى على جانب ، وفي الوسط مكان للمغنين ، دخلنا ، وقفنا في زاوية ، فاذا رجل يقول لمن بجانبه : أتعلم ان صاحب الدار باع خمسين فداناً ، لأجل هذا العرس ، مفاخراً به ابن عم له ، تزوج في الشهر الماضي ، غدا لايجد في صحن الدار ، من كل هذه الزينات ، سوى رمل اصفر ، وجاء ثلاثة يدعون الناس الى الطعام ، قام عدد وفير ، بينه جماعة من اهل التطفل والفضول ، عرفناهم ، لأنهم أكلوا ، ثم أكلوا ، ثم أكلوا ، وكان بين الناس من يصف صاحب الدار بالكرم ،ومن يصفه بالتبذير، فلما تهيأ العروس للزفاف ، ودقت الطبول والزمور ، ترك كلٌ مكانه ، واشتد الزحام ، وضاع النظام ، وعلت اصوات السكارى ، بالشتم والسباب ، ثم رفعت العصيّ ونزلت على الرؤوس،فهرب العروس، واختبأ ذوو الكرامة ، وكسرت الثريات ، وندب « الفراش » حظه ، وبكى بائع اللب ، قلت لشيطاني:الحمد لله على السلامة،اين طريق حلوان،قال سيارتي تنتظرنا، فبادرْ الى ركوبها معي ، ركبناها ، واستمرت في جريها ، الى ان صحوت في الساعة الاولى بعد نصف الليل

— ٩ —

ما آلمنا

لي قصيدة ضائعة ، بحثت عنها بين اوراقي فلم أجدها ، لكنني عثرت على خير منها ، هي ورقة صغيرة بخط اخي الغالي المرحوم ولي الدين يكن ، فاتني أن اضمها الى ماراسلني به من شعره ونثره ، كتبها ايام مرضه ، وليس فيها سوى هذه الابيات

ما لهذا السقام لازم جسمي حل مني ما بين عظمي وجلدي
كل يوم اذوب شيئاً فشيئاً ولقد ذاب قبل ذلك كبدي
غير مجد في الموت طب ولكن انتمو تحسبون ذلك بجدي

لثمت الورقة لثما ، وشممتها شما ، إن بها رائحة ولي الدين ، شقيقي ، استاذي ، كذلك كنت اقبل جبينه وعينيه ، في يوم الفراق ، وساعة الوداع ، وأناديه ، كما ناداني في آخر انفاسه ، ياأخي ، فبكيت وقلت: ياأخي ، لم اسمع سوى ندائي

«ليس غير الصدى يرد جواباً لي منه في حالة الانشاد
كلما قلت أين غاب فؤادي رد لي منه اين غاب فؤادي»

أعدت قراءة الابيات ، ما هي من بدائع ولي الدين ، لكنها زفرة من زفراته ، حين احست نفسه بأن لا رجاء في الشفاء ، طويت الورقة ، ضممتها الى اخواتها ، ثم نظرت الى ما حولي من كتبي ، عافت نفسي كل كتاب ، فاسترسلت في تفكيري ، ذكرت ايامنا (بالمنيل) ، وليالينا في (فروق) ، ألا رعيا لتلك الأيام والليالي ، ذهبت ،

فكانت خبراً من الاخبار ، كم للذكرى في القلوب الموجعة من لذة اليمة، والم لذيذ ، ايها القلب : هذا نصيبك ، لست المظلوم وحدك بين القلوب

هكذا ناجيت نفسي الى ان اغفيت ، فرأيت اخي في داره ، مطلا من نافذة غرفته ، عليه دلائل العافية ، كمن لم يعرف المرض ، قال الى اين ، قلت ما جئت الاّ اليك ، قال ادخل ، فدخلت وسلمت، قال : ما قولك ياحمدي في نونية شوقي بك قلت اجاد الهناء ، واحكم الرثاء ، وأحسن العزاء ، قال هذه أرضتك ، قلت الحسن لايعاب ، ومن ذا يجادل في الحق ، قال صدقت ، واني لأرى ما تراه ، ولكن ، الا يوجد في ادباء مصر من يسأل شوقي عن هجائه طاغية فروق (عبد الحميد الثاني) ، وهو من سبح بحمده ايام ملكه ، ثم بكاه في ثمانين بيتاً ، اظنك ياحمدي تذكر رائيته ، ولم تنس نظيرتها من شعري وقولي — منها

وذكرت سكان الحمى ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزير لباعث الدمع الغزير

قلت نعم اني ذاكر ، القصيدتان نشرتا في المقطم، منذ احدى عشرة سنة ، وبين نشر الأولى والثانية يومان ، اما عذر الادباء في السكوت عن السؤال ، فأظنه لأنهم ليسوا مثلي ، وانهم نسوا ، الم تر كيف فهم شوقي حال البلد ، فقال عنه في نونيته (كل شيء فيه ينسى بعد حين) . هكذا ظن الكل ناسين ما مضى ، حتى انا ، فتناسى ، وهجا ممدوحه ، من (كان يدعى بأمير المؤمنين) ، واني لفي حيرة من شعراء زماننا ، ينظم الواحد منهم قصيدة، فيبعث بها الى كل الجرائد، كأنها من اعلانات « شملا » و« شيكوريل »

هنا دخل شيطاني ، قال السلام عليكما ، قلنا وعليكم السلام ،قال الم ينته حديث الشعر والشعراء ، مالنا وهذا الآن،قوما معي نتنزه ، قال اخي : اما انا ، فلديّ اعمال كثيرة ، اذهبا انتما في رعاية الله

سلمنا وخرجنا ، قال شيطاني : بيتك قريب من هنا ، ولي معك حديث جديد ، فلما بلغنا البيت وجلسنا ، قلت له قل ما تريد ، قال لكل مجال مقال ، كان حديث الليلة الماضية دأراً على اعراسنا ، وليلتنا ، معلومة البداية ، فلنتحدث في مآتمنا ، الا ترانا ياصاحبي مغالين بها ، كحالنا في اعراسنا ، يموت المرء ، فان كان فقيراً ، جعل كفنه من ثلاثة ادراج ، وان كان بين الفقير والغني ، فمن خمسة او سبعة ، أي بالوتر ، وان كان غنياً ، فمن تسعة أو احد عشر ، من قماش غالي الثمن ، يأكله التراب ، ولا نفع منه للدفين ، كم من اناس شروا تلك الادراج بما يغني عائلة معدمة ، ان اقل ما ينفقه عليها اهل اليسار عشرون ديناراً ، وما حال الجنازة ، يشيعها فريقان ، أحدهما تسيره عاطفة الحب ، وثانيهما مأجور تدفعه حاجته ، فهو يسير مرغماً مقهوراً ، جاء به اهل الميت ، لا لشيء سوى الفخار ، هذا عدا الكفارة ، والذبائح ، وكانت المآتم الى عشرين سنة مضت ، تقام اربعين ليلة متعاقبات ، فاختصرت الى ثلاث ، يليها ليلة في مساء كل خميس ، الى الاربعين ، ثم نقصت الى ليال ثلاث ، ومن الناس من يكتفون بليلة ، وهؤلاء قليلون ،لااود ياصاحبي ان آخذك الى مأتم، يكفيك ما عاينته في ليلتك ، وانك لتعلم ما ينفق على الطهاة و (الفراشين) من ثمن طعام كثير الالوان،الى اجرة مايأتي به الفراش، من سرادق ، ومقاعد ، ومصابيح ، وسائر ما يلزم ، ولا اظنك

تجهل ما ينفق داخل البيت ، ثمناً لقماش اسود ، تغطي به البسط ، والمقاعد ، وكل مرآة او صورة معلقة ، وما تشترى به أثواب الحداد للسيدات ، والخادمات ، والسادة ، والخدم ، فما هو الحال في فروق، اني لم اصاحبك الى مأتم فيها

قلت : شتان بين ما تقول ، وما ستسمع ، أهل فروق لم تفارقهم الحكمة ولا في مآتمهم ، لايتباهون بأكفان الموتى ، ولا يسرفون في سبيل الجنازة والمأتم بعض اسرافنا ، يُحمل فقيدهم في نعشه ، فلا يشيعه الا اقاربه واصحابه ، ولا تخرج سيدة من الدار خلف المشيعين ، ولا نسمع في الدار صراخاً ولا ندباً ، فاذا دفن الفقيد ، تقدم المشيعون الى ذويه بالعزاء ، لا يجيء الدار احد فيدعى الى المائدة ، المقام مقام حزن،لا فخار فيه ،اماالقراءة فتكون في المساجد وهنالك يوزع الطعام على الفقراء ، فيأخذ كل نصيبه الى داره ، ولا يعرف اهل فروق لبس السواد ، هكذا كان عهدي بها الى سنة ١٩٠٠ م ، قال شيطاني : الا رضي الله عنهم ، ووفقنا لان نحذو حذوهم، والآن استودعك الله،ذهب صاحبي وصحوت في منتصف الليل

— ١٠ —

جولة في العاصمة

لي صاحب ، له اثنتان من طبائع النمل ، اولاها ، الاقتصاد ، ثانيتهما ، التبدى في الصيف ، والاختفاء في الشتاء ، لم اتوقع زورته ، من ذا يخرج في ذلك اليوم المطير ، الا انا وشيطاني ، قالوا لي جاء فلان ، لم أصدق الاذن الا برؤية العين ، قلت اهلا وسهلا ،

أأنت زأري الآن . قال صدقت ، هذا عجيب ، لكنني مجبر ، أنظر ، هذان عددان من المقطم . في احدهما يرى البعض ان الشاعر الكبير شوقي بك ، هجا في نونيته الاخيرة الخليفة « وحيد الدين » وفي الآخر ، ليلتك التاسعة ، وفيها ان شوقي ، انما قصد الخليفة السابق « عبد الحميد الثاني » ، فأي الرأيين اقرب الى الحقيقة . قلت : القائلون بالرأي الاخير كثيرون ، وان لم يكتبوا ، والابيات تنطبق على عبد الحميد اكثر من سواه ، فهو من كان امره في السجن غادياً رائحاً ، وهو من وصف بأنه (كالغادة في القصر سجين) كذلك كانت عاقبته الاسقاط من الخلافة ، بأيدي آساد الشرى من جنود الحق ، ولا اظن ان يتمثل شوقي بعهد وحيد الدين ، وينسى عبد الحميد ، في سني جبروته ، وما في بداية ملكه وختامه من العظة لمن يتعظ ، قال : فكيف فسر شيخ الاسلام السابق مصطفى صبري ابيات شوقي ذلك التفسير ، قلت سله ولا تسألني ، اما الذين ردوا على الشيخ ، فأرى انهم لم يقصدوا سوى رد سهامه اليه ، واقسم بالله ، اني لم ار نقداً جمع بين الباطل والخروج عن الوقار ، كنقد مصطفى صبري ، لطف الله به ، وغفر له ، واعتقادي ان مالاقاه كفاه ، قال زأري اصبت ، واني لشاكرك ، انجيتني من حيرتي ، وارحت فؤادي ، سأبيت الليلة منشرح الصدر ، غير نادم على خروجي ، ولا آسف على أجرة العربة ، والآن ، هات قبعتك ، قلت لماذا تريدها قال الا تود مصاحبتي ، قلت اما القبعة : فقد رأيت بالاختبار ان لا حاجة اليها في الشتاء ، لاواقي من المطر كالمظلة ، فلا بد من احتمال ثقلها للضرورة ، واما مصاحبتك ، فهي أمنيتي ، لكنني على موعد اللقاء بشيطاني ، فارجو ان تعفو

ودعني زائري ، وآب الى منزله ، قلت نعم الرجل ، وافر المال ، حكيم في انفاقه ، لايبسط يده كل البسط ، ولا يغلها الى عنقه ، فهو لا يبالي بدنانير قد يعطيها لذي الحاجة، لكنه يأسف على دراهم تذهب منه الى غير موضعها ، لله دره ، شتان بينه وبين قوم منا ، ينفقون الآلاف بين كل صباح ومساء، لا في الضروري، ولا لاجل الكمالي، بل فيما يبتغون من لهو ولعب ، وارحمتاه للبائس ، يشكو فاقته والمه ، الى واحد من اؤلئك اللاهين ، فلا يرق لشكواه ، ولا تحدثه الامارة بالسوء ان يخفف بلواه ، فينفحه بثمن كأس مما يشربه مع رفاقه ، او يجود عليه باليسير، من كثير لا يبخل به على منابع الشر من مصائد الجهال ، عجباً ، يقولون يالها من ازمة ، ويصرخون لقلة المال ، ايها الصارخون ، انا نعاني ازمة في العقول

دقت الساعة تسعا ، آن اوان اللقاء بالرفيق العزيز ، يانوم ادركني ، اضطجعت ، فهجعت ،

رأيتني في مصر الجديدة (هليو پولس) ، في منزل آهل ، من منازلها المشادة على احسن طراز ، صاحبه ز . ع . بك ، من اهلي ، لا يقل عن شيطاني في ظرفه ، ويكاد يدانيه في دهائه ، كان بجانبي ، يذكرني بليلة سهرناها الى الصباح في حديث لذيذ ، من قديم وحديث ، وبينا أصغى اليه ، اذا به قام يمشي الى غرفة اخرى ، قلت ماذا حدث ، قال يا خال : التلفون يدق ، وعاد بعد لحظة يقول انه سألني عنك ، وهو آت الى هنا ، قلت من هو ، قال البست هذه ليلتك العاشرة ، قلت نعم ، فالقادم شيطاني الغالي ، اذا اقبل فسلم عليه باجلال ، وخاطبه كما تخاطبني يا خال

جاء العزيز ، حيانا وحيياه ، قال اني جئت بمنتهى العجلة ، قلت: ليس في الأمر من عجب ، العجلة من الشيطان ، قال دعنا من المزاح، الا تذكر ما كنت فيه ، قبل ان تجيء الى هنا ، قلت اذكر ، قال فهل يروقك ان تجول معي جولة ، ترى فيها اين تقبر الأموال ، في زمن قلّت فيه مواردنا ، وزادت حاجاتنا ، لا تخف ، لن ندخل منزلا للقمار ، هذا شيء عرفناه في اولي الليالي ، اما غيره ، فكثير ، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وبعد ، فسيارتي في الانتظار قم معي ، وليكن هذا الهمام ثالثنا ، قال له ز . بك : ارجو اعفائي ياخال، انا الليلة متعب ، لا جلد لي على السهر ، فودعناه وخرجنا

ركبنا السيارة الشيطانية ، جرت بنا في الطريق ، جري القضاء، فلما بلغنا القاهرة ، قال أنظر يمنة ويسرة ، ما اكثر الحانات ومن فيها ، كم من الدنانير يضيع هنا ، في اليوم والليلة ، ثم وقفت السيارة، امام باب كبير،نزلنا ، دخلنا ، فاذا مكان فسيح ، الكراسي لا تعد ، عليها شبان ، ونساء ، من تلك الجماعة ، وفي الوسط ، مكان خال ، كدائرة رسمها صبي برجله ، وفي احدى النواحي افراد بأيديهم آلات الموسيقى الوترية ، قلت لصاحبي : ما هذا المكان ، قال مرقص ، جلسنا ، وكان بجانبنا اثنان ، قال احدهما للآخر ، ألم تقسم بالأمس انك لن تجيء الى هنا ، قال نعم ، لكنها اخذت خاتمي الثمين رهينة ، لأعود اليها الليلة ، ها هي مقبلة في ثوبها الاصفر ،وصدحت الموسيقى، فرأيت شباناً ينتقلون من صف الى صف ، لاختيار من يودون الرقص معهن ، في تلك الدائرة المتوسطة ، قلت لصاحبي : كفاني ما سمعت ورأيت ، اريد منظراً غير هذا

خرجنا الى السيارة ، ركبناها ، الى ان وقفت ، امام بناء ساطع الانوار ، ولجنا بابه ، هذا مسرح كبير ، رجال ونساء ، ينتظرون رفع الستار ، قال شيطاني : هنا تمثل فصول هزلية ، يراد منها النصح اثناء الفكاهة ، اما الحاضرون ، فقد جاء اكثرهم ليسمع نكتة يحفظها ، أو أنشودة يعيدها في منزله ، ومنهم من همه ان يغازل احدى الحاضرات ، او الممثلات ، كأنهن دعونه الى ذلك ، وبدأوا يمثلون ، الكلام بلغة العامة ، أحزنني ان تقتل اشرف اللغات ، بهذا الطعن المميت ، ونظرت عيوناً تغازل ، وأخرى تجاوب ، قلت لشيطاني : لا صبر لي على رؤية فصل واحد ، قال الا تنتظر نهاية هذا الفصل ، ان خروجنا الآن يوجه الينا الانظار ، قلت انهم لفي شغل عنا ، وعن التمثيل

ركبنا سيارتنا ، قلت الى اين ، قال الى الجزيرة ، قلت وما شأننا هناك ، قال ستعلم حين ترى ، فلما بلغنا برزخ (قصر النيل) ، ابصرت بعربات وسيارات عديدة ، فيها رجال ونساء ، من نوع من ذكرت ، أناس يغنون ، وآخرون يضحكون ، قلت لرفيقي : ما وجهة هؤلاء ، قال : (ان الخلا للعاشقين فسيح) ، واجتزنا البرزخ ، عاطفين على اليمين ، فسمعنا من بين الاشجار كلاماً وضحكا ، قلت واين الشرطة ، والخفراء ، قال لا تضيقها في وجوه الناس ، واشار الى ذهبية ، قال أترى هذه ، قلت ماذا فيها ، قال : الاجمال يكفي ، فيها كل شيء ، قلت عد بنا الى حلوان ، اني لشاكر فضلك العظيم ، قال واني لأرجو ان لا يطول افتراقنا بعد الليلة ، ان شاء الله ، وادار السيارة ، فما زالت تجري الى ان صحوت ، في الساعة الثانية بعد نصف الليل

شكر واعتذار

تفضل عليّ بعض الاخوان الاجلاء من ادباء مصر وشعرائها ، بما جادت به قرائحهم من خير الكلام ، بين منظوم ومنثور ، تقريظاً وثناء ، واني مع شكري فضلهم الكبير ، اعتذر الى حضراتهم عن اثبات تقاريظهم في هذا الكتاب ، انها منقوشة على فؤادي ما عشت ، اما عادة نشر التقاريظ العديدة ، فأراها قديمة ، واتمنى ان لا تتبع في مطبوعاتنا ، ولقد اكتفيت بتعليق المقطم الاغر المنشور في صدر الكتاب ، فأنا فرح بالقليل ، خجل من الكثير ، جزى الله المتفضلين خيراً

يوسف حمدي يكن

آثار المؤلف لغاية سنة ١٩٢٣

(دقات على اوتار القلوب) خلقية اجتماعية فكاهية مطبوعة

(الليالي العشر) عظات وحقائق في خيال

(السوانح اليوسفية) تنشر تباعاً في مجلة المرأة المصرية وستطبع

(منكر ونكير) في اخلاق الطوائف ستنشر في المقطم تباعاً »

(العصر الزائل) رواية عن حال تركيا في عهد عبد الحميد الثاني »

(حديث الدينار) خيالي، في نقائصنا الخلقية، والمالية والتجارية الخ »

(ديوان حمدي يكن) غزل ، رثاء ، هجاء ، هناء ، رسائل »

obeikandl.com